

فوق المشاعر



بسم الله الرحمن الرحيم
تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس
الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله
ونسأل الله أن ينفع بها.

<https://anaheedblogger.blogspot.com>

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.
- هذه التفاريغ من عمل الطالبات ولم تطلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله - عزّ وجلّ -، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله.
- والله الموفق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الثالث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مرحبًا بكم جميعًا في هذا اللقاء تحت عنوان: **فقه المشاعر**. شكرًا لحضوركم، والشكر موصول لجمعية إشرقة على أن سببت هذا الاجتماع.

أسأل الله أن يكون نورًا على نور، ننتفع منه في دُنْيَانَا وأُخْرَانَا.

تحت عنوان: **فقه المشاعر**، بدأنا في لقاءين ماضيين بمناقشة هذا الموضوع بعدما أشرنا إجمالًا إلى موقع المشاعر من النفس الإنسانية، وتبين لنا أن من مكونات النفس الإنسانية ومن قواها:

- الفطرة.

- الطباع.

- المشاعر.

وقد قال -عزَّ وجلَّ-: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)⁽¹⁾. فمن تسويتها خلق هذه المشاعر، وهي بهذه المشاعر إمَّا أن تَفْجُرَ وتَنْفَجِرَ، وإمَّا تَتَّقِيَ وتحافظ. ومن هنا أتت هذه النقاشات حول هذه النفس.

فكُنَّا قد وصلنا إلى موضوع العقل. لاحظوا: النفس إمَّا أن تَفْجُرَ، وإمَّا أن تَتَّقِيَ وتتوقَّى؛ فمن هنا ناقشنا موضوع العقل، وأن المشاعر هي المكوّن الرئيسي للعقل.

وسورة الشمس فيها الخبر وكيف أقسم الله -عزَّ وجلَّ- بالنفس وما سَوَّاهَا: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)؛ فهي قادرة على أن تنفجر وتنفس، وقادرة على أن تحبس وتربط تقواها؛ ولذلك عندما ننظر في سورة الشمس سنجد مثلاً لِمَن لم يُحْسِن في ربط نفسه أو عقله.

إذا فكرتم في سورة الشمس بعدما أخبرنا الله -عزَّ وجلَّ- بقوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ

¹() الشمس: 7-8.

دَسَّاهَا)؛ يخبرنا -عزَّ وجلَّ- عن هؤلاء القوم الذين فيهم نموذج لِمَن دَسَّاهَا.

(فَالْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)؛ يعني أنها متمكنة من أن تنفجر، ومتمكنة من أن تربط تقواها.

الآن تصوّر قوم ثمود: **(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11)**
إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا)؛ هذا عقله ومشاعره لم تتكون بالطريقة السليمة، فكان أشقاهم. فماذا فعل؟ فَجَرَّ وانفَجَرَ. عقر الناقة التي كانت آية، وكانت نافعة لهم في دُنياهم، وكانوا يشربون منها؛ لأنه كان في حال عدم انتفاع بمشاعره، إنما ترك الأمر على ما يهوى، فهوى به الهوى وحرّكه.

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِم رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا)؛
الله سَوَّى هذه النفس، فعندما لا ينتفع الإنسان من نفسه ويعقلها، يساويه الله باللاشيء! يساويه بالمعدوم. أعطاه الله نفساً سويّة فهو لم ينتفع منها، لم ينتفع من مشاعره ويفكر في العواقب ويخاف، لم ينتفع من مشاعره فيربط نفسه، فحينما تساوى هو وهذه الجمادات سَوَّاه الله:

(قَدَمَدَمَ عَلَيْهِم رَّبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا).

هذه إعادة سريعة لمفهوم العقل؛ لأنه من الأشياء التي فيها تفاصيل كثيرة، وهنا أؤكد عليكم أننا عندما نأتي لمفهوم العقل نقول: "العقل هو أداة الضبط الأساسية في النفس"؛ ولذلك سمّاه العرب: عقلاً؛ لأنه يكفّ ويضبط. وهنا تصوروا أنه يضبط العلم، يضبط الأهواء، الشهوات، الغرائز، ومن الداخل به الفطرة التي تمده بكراهية الفجور والشر، وتمده بمحبة الخير، (فَالْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا).

فتخيل أن هذا العقل يُنسج من هذه الفطرة التي تُمده، ومن الخارج أيضاً تمده الشرائع، فتكون مشاعره، وتمده بالتربية السليمة، فكل هذا يكون العقل.

العقل فيه الضبط الأخلاقي. يأتي أحد ويقول: "الكننا نحفظ في بالعقل"، نقول له: نعم؛ ولذلك بعض من تكلم في هذا الأمر من العلماء الأوائل قالوا: "العقل عقلان؛ عقل إدراك" يضبط به الإنسان العلوم؛ بمعنى أنه يحفظ

بهذا العقل. وهذا يمكن أن يكون له علاقة بأعمال الدماغ -ولكن هذا ليس كلامًا محققًا-.

أمّا العقل الثاني: "**عقل الرُّشد**" الذي يتكون من مشاعرك ويربطك ويرشدك ويمنعك من أن تفجّر، ويأمرك أن تتقي المخاطر، وألّا تكون مثل: (**أَشْقَاهَا**)، فهذا لا بدّ أن تكون المشاعر رأسه، وهو كما تبين، أنّ هذا العقل يُمدّ من الداخل بالفطرة، ويُمدّ من الخارج بالتربية المعتمدة على الشرائع.

وبهذا نتفق على أن المشاعر هي رأس مال الإنسان، وأن الشيطان حريص على إضاعة المشاعر، ومن ثمّ **إضاعة عقل الرُّشد**.

أيضًا أشرنا إلى **مسألة الإحساس**؛ فالإحساس لا بدّ أن يكون فيه تدخل من الحواس، فهو الإدراك؛ الإنسان يحسّ، ويدرك الأشياء بحواسّه، ونشير هنا مرة أخرى إلى الدماغ، فيدرك بهذه الطريقة، ثمّ يشعر.

تناقشنا أيضًا سابقًا على أن من أهمية الشعور: أن روح العبودية مبنية على المشاعر، وقررنا أن ركائز العبودية هي: الحب والخوف والرجاء. هذه الركائز

المدفونة في نفس الإنسان هي التي تفرق بين المؤمن الصادق والمنافق المرتاب.

ومرّ معنا أيضًا ممّا يدل على أن المشاعر لها أهميتها، حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ»⁽²⁾.

وعرفنا الصنفين؛ الصنف الأول الذي عنده مال: (عَبْدُ رِزْقِهِ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا، فهو يَتَّقِي فيه رَبَّهُ، وَيَصِلُ فيه رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ اللهُ فيه حَقًّا)؛ لاحظ شعوره تجاه ماله، وشعوره تجاه ما يملك، تأثر بهذا الإمداد -العلم-؛ فاتّقى ربه، ووصل رَحِمَهُ، وعلم اللهُ فيه حَقًّا (فهذا بأَفْضَلِ الْمَنَازِل).

ويشاركه إنسان أُوتِيَ العلم لكن ما عنده مال: (يقول: لو أَنَّ لي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فهو بِنَيْتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ)؛ هو صادق في ذلك، لاحظوا شعور الصديق، ولاحظوا أن الإنسان يمكن أن يسبق بصدق مشاعره.

مقابل هذا؛ الصنف الثاني: (وَعَبْدُ رِزْقِهِ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرِزْقَهُ عِلْمًا، فهو يَخْبِطُ في مَالِهِ بغيرِ عِلْمٍ، لا يَتَّقِي فيه

⁽²⁾ أخرجه الترمذي (2325).

رَبِّهِ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًّا، فهذا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ) رجلٌ لديه مال ولا يعلم اختباره في هذا المال؛ فهذا لا يتقي ربه ولا يصل رحمه، وإنما في حال من الشراهة والإقبال على الدنيا، يدرك كمّ الرصيد الذي عنده، لكن ليس لديه عقل يرشده كيف يتصرف، فهو عنده عقل إدراك، لكن ليس عنده عقل رُشد، (فهذا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ).

مَنْ يشاركه؟ (وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فهو يقول: لو أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ) يعني لَفَسَقْتُ، وَفَجَرْتُ، وَفَعَلْتُ، (فَوَزُرُهُمَا سَوَاءً).

والسبب: أن مشاعرك، وأمنياتك، ورغباتك التي تصدر من عميق فؤادك، كل هذه تصبح مع مَنْ تَتَمَنَّى؛ فإِذَا لَخْطُورَةُ مَشَاعِرِنَا! وهذه الصورة تمثل الذي مضى، وأتينا بعد ذلك بما يدل على ذلك من قصة قارون وكيف كان قومه ينصحونه.

سنحاول اليوم أن ندخل في باب جديد في هذا الموضوع، وموضوع **فقه المشاعر** موضوع متشعب جدًّا، لكننا سنأخذ الذي نُرْزِقُهُ؛ فالיום سيكون اهتمامنا

باللغة والشعور لكي نتصور أن اللغة في الأصل إنما هي أداة للتعبير عن **الشعور**.

لو أتينا وفكرنا في معنى كلمة **شعور** في اللغة، سنجد أن أصل كلمة شعور في اللغة يعود إلى الجذر الثلاثي: الشين والعين والراء، والمعنى الأصلي لهذه الكلمة إنما يدل على الدقة والرهافة؛ ولذلك منه كلمة "شعر الإنسان"، سُمِّيَ شَعْرًا لِلطَّفَّةِ وَدِقَّتِهِ وَنَمَائِهِ الْخَفِيِّ، فالشعرة هي أدقُّ ما في الجسم، يجد الإنسان جلدَه مكسّواً بالشعر، فائدة الشعر: يمكّن الجلد من الإحساس بأخف حركة، حتى لو كان أثر نسيج لطيف أو حركة هواء خفيفة، يمكنها تحريك الشعرة الواحدة، كأنه مقياس دقيق، تلاحظ أيضًا عندما نقول: "اقشعر شعر بدنه"، عندما يشعر الإنسان بشيء في داخله، مثلًا شيء يخيفه أو شيء يحزنه، أو يحصل له خشوع، فيقول: "اقشعر بدني"، يعني أن الشعور الداخليّ يؤثر على شعرك في خوف أو في رهبة؛ فلذلك **الشعور** هو: استجابة النفس الداخلية لأخفّ المؤثرات النفسية والوجدانية.

الشعر هو الشيء المتناهي في الدقة والرهافة والحساسية للمسّ، والشعور شيء في وجدانك -يعني تجدّه-، الشعر هو شيء ماديّ تُحسُّ به، تستطيع أن تدركه، والشعور معنى وجدانيّ، قائم على أن الإنسان كأنه يلتقط الأشياء الدقيقة والأنباء الخفيّة بنفس الرهافة والحساسية.

إذا لاحظوا؛ **اللغة والشعور**. من عند كلمة الشعور يبدأ فهمنا أن اللغة هي أداة للتعبير عن الشعور، ومن هنا تسمع كلمة "شُعراء"، ما دور هؤلاء الشُعراء؟ أو لماذا سُمّي الشاعرُ شاعرًا؟ لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، يتفطنّ للدقائق واللطائف الخفيّة في المعاني والأحوال التي تمرُّ على الناس، ربّما تمرُّ هذه الأشياء على الناس مرور الكرام، لا يلاحظونها، لكن الشاعر الحقيقيّ يتفطنّ لهذه الدقائق ويعبر عنها، فالشاعر يدرك الخفيّ الدقيق من هذه المشاعر ويعبر عنها، يستقبل الشعور اللطيف، ويصيغه في قالب شعر، **فالشعر هو الصياغة اللغوية للشعور**.

نؤكد على أن اللغة هي أداة للتعبير عن المشاعر. عندما تتلعثم لغتك، لا تحسن فهم شعورك ولا فقهه. سنحاول أن نأتي بكلمات تُبين لنا أن فقهنا لمعناها -اللغة- يؤثر على شعورنا.

فمثلاً كلمة: "عواطف". عواطف؛ هذه أيضاً قريبة من كلمة شعور، فهي كلمة نستخدمها. عندما ننظر إلى كلمة عواطف نجد أنها من مادة؛ العين والطاء والفاء، ومعناها: الانعطاف؛ يعني: الميل والانحناء. تقول: "عَطَفَ الغصن" يعني: أماله وحناه. وعَطَفَ الإنسان يعني: جانبه؛ لأن جانبه ينعطف وينثني.

هذه عواطف لأنها تسبب لك الانعطاف. وعندما نسير في الطريق الحسي، نقول: "انعطف يميناً". ما معناها؟ معناها: ملْ إلى اليمين. فالعواطف ماذا تفعل بك؟ العواطف تعطف وتنعطف بك، يمكن أن تُغيّر مسارك، تذهب بك بعيداً. هناك علاقة بين العاطفة والقرارات، يحدث الميل؛ قراراتك مائلة إلى كذا.

نلاحظ أن الشعور من الجذر (ش _ ع _ ر)، ومنها الشَّعْر؛ إدراك ودقة وحسّ. والعاطفة منها؛ العواطف،

ومنها الانعطاف، وهي نوع استجابة وجدانية وميل وقت القرارات.

فنحن الآن نريد أن نلاحظ أن لغتنا، وخاصة هذه اللغة العظيمة التي تكلم بها رب العالمين، ونزل بها كتابه الكريم، وتكلم بها رسوله، تحمل من المعاني ما يؤثر على عقلنا وتفكيرنا وقراراتنا.

ونضرب أمثلة لكي لنتصور هذه الحقيقة، تصوّر: إرسال الله رسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم- لهؤلاء العرب، هؤلاء العرب أين مكانهم، وما أحوالهم؟ تجد أن الصحراء محيطة بهم، وهي جزء من كيانه. هذا العربيّ هو مسكون بحبّ الصحراء، يسكن الصحراء، وحبّ الصحراء مسكون فيه، لكنه أيضاً مسكون بالخوف منها، مم يخاف؟ من الضياع، أكثر شيء يُخيف الشخص العربيّ أن يضيع في الصحراء، وإذا ضاع يخاف من الموت. فكان يستوحش في الصحراء من ظلمة الليل إذا ارتحل؛ إذا راح في رحلة يخاف من ظلمة الليل، ويخاف من ظمأ الهجير إذا تاه، يخاف أن

يظماً، ويعرف أنه إذا فقد الطريق فهذا يعني أنه رأى الموت عاجلاً أو آجلاً!

لذلك انظر كيف سماها العرب. سمّوا الصحراء بـ **التَّيْهَاءِ، والبَيْدَاءِ**؛ كأنهم يقولون: "إنَّ من يتيه فيها ويضيع سيتبدّد وجوده كله!" يعني التي ستجعلك تتبدد وتذهب.

هو لا بدّ له من دخول الصحراء ومن السير فيها، فحاول أن يُلَطَّف الموقف وأن يكون متفائلاً، فسمّاها **مفازة**؛ من الفوز؛ فكأنه يقول: "إن خرجت منها سالماً وقطعتها، فأنا فائز". فانظر كيف يعبر عن شعوره! سمّى الصحراء مفازة تعبيراً عن شعوره أنه لو خرج من الصحراء سالماً فقد فاز.

أيضاً تجد العرب لا يسافرون في الصحراء دون دليل، فكانوا يسمون الرجل الذي يسافر دون صُحبة الدليل والهادي بالرجل **العسيف**. وأصل الكلمة من الفعل "عَسَفَ"؛ يعني قطع الصحراء دون هداية، ولم يبحث عن صواب الطريق. فتجد هذه الكلمة -التي هي عسيف وعسوف- تُستخدَم اليوم -بعد تطور المعجم العربي- في

أبواب الكلمات التي تعبر عن الظلم والجور، فكأنهم يقولون: "إن الذي يدخل الصحراء بدون دليل يدلّه أو هادٍ، هذا ظالم لنفسه".

نلاحظ أنهم يجعلون السير بدون هادٍ بمثابة الإنسان الذي ظلم، كأن الإنسان الذي يسير ويسافر دون معرفة الطريق يظلم نفسه بهذا الجنون والتهور. ونلاحظ أن الذي يدخل الصحراء بدون هادٍ بل يثق بقدراته؛ لأنه لا يعرف الطريق ولكنه يثق بقدراته، فكأنه رمى نفسه للموت! هذا الإنسان مهما كان عالمًا بأمور في الدنيا -غير موضوع الطريق- لو دخل طريقًا لا يعرفه أو دخل صحراء هو لا يعرف طريقها، فهو الآن ظالم.

كلمة **ظُلْم** مبدؤها التعبير عن هذا الإنسان الذي أضاع الطريق وأهمّل طلب الهداية. حتى في زماننا الشخص الذي يسافر في الصحراء يجب أن يضع على هاتفه خريطة البرّ، وإلا سيكون قد ظلم نفسه.

الظلم مبدؤه من إضاعة الطريق وإهمال الاستهداء، وكلمة ظلام من نفس العائلة، يعني أن النور يُستهدى به، والظلام يضيع فيه الإنسان؛ لذلك تلاحظ علاقة

العرب بالنجوم، وكيف توجد في نفوسهم مشاعر تجاه هذه النجوم؛ لأن العرب وَعَت في عقلها. لاحظوا أن العرب لديها مشاعر تعقلها عن أن تدخل الصحراء وهي لا تعرف الطريق، يجب أن تكون هناك علامات هادية، فكانوا في سيرهم وسفرهم يسترشدون بالنجوم.

ولذلك رب العالمين يقول لنا: **(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)**⁽³⁾؛ هُمْ يشعرون أن السَّير بدون هادٍ يُعتبر نوعًا من الجنون والتهوُّر، لا تمشِ في الظلام وتظلم نفسك، حتى لو مشيت في النور بدون هادٍ ستظلم نفسك، الهادي الذي يذكرك على الطريق كأنه نور لك، فلو مشيت حتى في النهار بدون هادٍ ستصبح كأنك في الظلام! العرب يعرفون هذا الأمر، ويعرفون أن الإنسان يمكن أن يجد مشتتات في الطريق تسبب له الضياع في هذه الصحراء.

لاحظوا كيف ستأتي تعبيرات الآن تُعبّر عن هذه المخاوف التي يخافونها، فقالوا في أمثالهم: **"أَهْلَكُوا مِنْ تُرَّهَاتِ الْبَسَابِسِ"**. كلمة **الْتُرَّهَاتِ** كما قال الأصمعي: **"هي الطُّرُق الصَّغَارِ المتشعِّبة من الطريق الأعظم،**

⁽³⁾ (النحل: 16).

والبَسَابِسِ هي الصحراء الواسعة، فكأنهم يشعرون بالخوف من الطرق المتشعبة التي تأخذهم بعيدًا عن طريقهم، يعني كما أن العلامات والنجوم التي في السماء عندهم للهداية، وهي تزيل الظلام والذي يعرفها وسار معها لم يكن ظالمًا لنفسه، إذا كانت العلامات والنجوم عندهم للهداية، فالتُرّهات التي هي الطرق الصغار المتشعبة فهي للإضلال والتشتيت؛ ولذلك يستعملون هذا المثل لِمَن ضاع عن مقصده وسلك طُرُقًا لا تنفعه، لكنك تستخدم كلمة تُرّهات، نُطلقها على الكلام الغير مفيد أو الكلام التافه، ما العلاقة؟ انتقلت هذه الكلمة من الطرق المتشعبة في الصحراء إلى الكلام الغير مفيد والكلام التافه، لماذا؟ لأنه يجب أن نشعر تجاه الكلام الغير المفيد والكلام التافه أنه تُرّهات، بمعنى أنه يصرفنا عن غايتنا وعن مقصدنا، يبعدنا عن الطريق الأساسي في سعينا، فلو فهمت كلمة تُرّهات ووضعناها في مكانها الصحيح لن تقطع عليك الطريق، سيصبح شعورك تجاهها أنها مرفوضة. لو وضعت عنوانًا على كل مقطع تافه أن هذا من التُرّهات، أو على كل مقال

سخيف، أو على كل تغريدة تافهة، ستشعر بأنك رافض لهذا الشيء.

لكن الأزمة الكبيرة ابتداءً من أنني لا أعرف معنى كلمة تُرّهات، ومرورًا بأنني لا أحكم على الأشياء بأنها تُرّهات؛ فلذلك لا توجد مشاعر تجاه هذه الأشياء، فاللغة تحكمني، وتحكم عقلي، عندما أعرف معنى كلمة تُرّهات؛ أنها تفاهات تُضيّعني عن طريقي، وأن لدي هدف محدد فتحت الهاتف من أجله. فهذه تُرّهات، كأني أمشي في طريقي وتأتيني هذه الطرق الصّغار المتشعبة من الطريق التي إذا دخلتها ضيعتني.

هذا كان مثالاً على موضوع اللّغة، لا زلنا في هذه الأمثلة، ونحن نقول في نقطة البداية: هذا العربي، والصحراء محيطة به، يسكنها وتسكن فؤاده، ولا يستطيع أن يقضي أموره إلا مرورًا بها، فهي شاغلة له، فلاحظت أنه يريد أن يهتدي فيها، وسمّاها مفازة؛ لأنّ عنده شعور أن الذي يخرج منها يفوز، وسمّاها ببداء؛ لأن الضائع فيها يتبدّد -كأنه ينتهي-؛ ولذلك تتصوّر أن كلمة الهداية عند العرب لها شأنها، في معجم العرب

كانت الهداية لها معنى واضح، ما معنى أن تهدي فلان؟ أن تعرفه الطريق الذي يخرج به من المتاهة أو يصل به إلى مراده. فالهداية عبارة عن اسم يُطلق على الإرشاد للطريق الجغرافي الذي في الأرض، والهادي هو الرجل الذي يعرف الطريق الصحراوي.

فتخيّل كيف جاءت الشريعة لتكون عقلاً، وكيف جاء القرآن لينقل تفكيرنا. **أولاً:** استعمل القرآن كلمة هداية في هذا المعنى؛ أنك عن طريق الهدى تقطع الطريق؛ لذلك موسى -عليه السلام- قال: **(أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى)**⁽⁴⁾؛ يعني أجد على النار من يدلّني على الطريق أو من خلال النور الذي حول النار سأعرف الطريق، قال: **(هُدًى)**؛ يعني الطريق الجغرافي.

لكن جاء الاستعمال الإلهي بالتركيب مفاجئاً للعرب، نقل لهم مشاعرهم، يخافون من الصحراء ومن الضياع، يَرَوْنَ أن الإنسان مجنون إذا دخل الصحراء وما معه هادٍ، يجدون أن الهادي هو الذي سيأخذ بيدهم ويخرجهم من الصحراء، فيأتي القرآن ويستعمل كلمة هداية في مكان آخر، فيقول -عزّ وجلّ-: **(وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّي عَنْ**

⁽⁴⁾ طه: 10.

ضَلَّالَتِهِمْ⁽⁵⁾، (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)⁽⁶⁾: (وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)⁽⁷⁾. فيتفاجأ العرب بهذا المعنى، تفاجؤوا بمدلول كلمة: (هَادٍ)، وهم عندهم مشاعر أنهم لا يريدون أن يضيعوا، يخافون من هذه الكلمة.

إذا كان القرآن يقول لهم: ضعوا شعوركم بالخوف من التيه جانباً، واعلموا أنه لم تعد الهداية هي مجرد قطع الصحراء، ولم تعد الصحراء وحدها هي المخيفة، ولم يعد الهدى إرشاداً إلى مكان جغرافي، ولم يعد الضلال أيضاً ضلالاً جغرافياً! انتقل المعنى. ليس الهداة هم بشر يعرفون الجهات والطرق للهدى، بل الهداة هم الذين يعرفون الله، والحياة سفر في صحراء، فصارت الهداية ضرورية في هذا السفر، وصار كل السائرين لا بدّ لهم من نجم شماليّ يرشدتهم، لا بدّ للحيارى التائهين في الأرض، الذين تأخذهم الأفكار يمنةً ويساراً، لا بدّ لهم من أصحابٍ يدلونهم على الهدى؛ ولذلك تسمع هذه الأخبار في القرآن جليّة وواضحة، كما أخبر -عزّ

⁽⁵⁾ النمل: 81.

⁽⁶⁾ البقرة: 258.

⁽⁷⁾ الرعد: 33.

وجلّ- في سورة الأنعام: (كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَظِرُوا)⁽⁸⁾.

أرأيت هذا الذي يسير في الصحراء ولا بدّ له من أصحاب يدلونه على الطريق السليم؟! كم هو مجنون لو لم يسمع الكلام، رب العالمين يقول: (قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى)، إن كنتم تظنون أن الهدى هو أن تقطع الطريق، فحقيقة الهدى هو أن تصل إلى رب العالمين. فتصور أنهم يشعرون تجاه هذه الكلمة -كلمة الهداية- بمشاعر قوية، ويخافون من التيه والضياغ.

تصوّر كيف نقلتهم هذه الكلمة، الدنيا كلها صحراء، والنجاة إنما أن تنجو في الحياة الأخرى؛ فأنت تحتاج هنا هداية لكي تنجو، والذي سينقلك لهذه الهداية هو الله، وقد أرسل إليك هاديًا، هذا أمر مهم يفهمونه؛ ولذلك الله -عزّ وجلّ- يقول لنبيّه: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)⁽⁹⁾.

⁽⁸⁾ الأنعام: 71.

⁽⁹⁾ الشورى: 52.

عادة في الصحراء الهادي لا بدّ له أن تكون لديه علامات، عنده إشارات تهديه، والعرب سمّت هذه الإشارات آية وعلامة. يمشي في الصحراء ويلحظ هذه الإشارات، فيعرف أنه قريب من البلد الفلاني، أو بعيد بمقدار يوم وليلة، إلى آخره. فكان بالنسبة لهم آية.

فالآن تصوّر كيف يشعرون تجاه الآية؟ يشعرون أن هذه الآية هي سبب الهداية، يحبون الهداية؛ لأنها ستنجيهم من الصحراء، وتنجيهم من التّيه والبيداء، ويشعرون بأهمية الآية، ويبحثون عنها، ويميزونها ويتأملونها؛ لأنها إشارات وعلامات تؤكد لهم صحة سيرهم؛ ولذلك قد جعل رب العالمين الأرض والسموات والأنفس آيات: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)⁽¹⁰⁾، وجعل القرآن آية تدلهم وتهديهم.

فالآن لاحظ كيف أن العرب عندهم مشاعر تجاه هذه الكلمات؛ خوف من الصحراء، خوف من التّيه، ومن البيداء، يريدون أن يفوزوا فسمّوها مفازة؛ لأن من خرج منها فاز، يعتبرون أن السائر فيها -وهو محتاج أن يسير- يحتاج إلى هادٍ، يحتاج إلى دليل، إلى آية

¹⁰ () فصلت: 53.

يلحظها ويتأملها فينفعل بها. فقليل له: "انظر إلى كل هذه المشاعر التي وراء هذه الأمور، وسّعها وستعرف الحقيقة". فالآن مشاعره تغيرت -يعني تغيّر عقله-، بعد ما كان أقصى مخاوفه أن يتوه في الصحراء، صار يخاف من أن يتوه في الدنيا. فتغيّر الشعور فتغيّر العقل. تغيّر في العقل العربيّ معنى الطريق والهداية، ومعنى الضلال والتّيّه والتّرّهات؛ كلها تغيّرت، وصارت هناك مشاعر جديدة -يعني صار هناك عقل جديد-، وصارت جميعها ترشد لِمَا هو أسمى من الطريق الدنيوي، لِمَا هو أعظم من الهداية الجغرافية، لِمَا هو أرشد من الآية المادية، ولِمَا هو أصوب من التّرّهات المضلّة. وهنا التفت العربي إلى أمر جديد تمامًا. لكن هذه النفس يمكن أن تبقى متبعة لهواها، هي مدركة لهذه الحقائق، عرّفتها الآن، لكن يمكن أن تُكابِر؛ لأن الهوى يهوي بصاحبه. فظهر أناس يظنون أنهم يعرفون الطريق، وكأن هؤلاء يقاومون أن يعلمهم أحد. وعندما يأتي أحد ليدلهم على الطريق، يقولون: "لا، أنا أعرف الطريق". العرب اشتقت من كلمة التّيّه -يعني الذي يضيع في الصحراء الجغرافية التي في الأرض- كلمة التّيّه النفسيّ، يعني

نقول: "هذا عنده تيه، عنده غرور وتكبر". فكأنه يُقال: "امتناعك عن أن تعرف الطريق من مصادره سيسبب لك الضياع، فنتيجة تكبرك أنك ستتوه". كأن ضياع المكان والجغرافيا يوازيه ضياع النفس في غرورها وتكبرها واستغنائها عن التعلم والتبصر والسؤال عن الطريق؛ ولذلك تجد في لسان العرب: **"رَجُلٌ تَيْهَانُ** يركب رأسه في الأمور"، يعني فكما يحتاج المرتحل إلى دابة يركبها، فإن المتكبر يركب رأسه ليقوده. كأنه يقول: "أنا أعرف الطريق، وما أحتاج إلى رسول ولا أحتاج الدليل"، فنقول له: "أنت رجل تائه، أصابك التَّيه، والكبر الذي سيسبب لك التَّيه الجغرافي والضياع". يقول: "أنا أعرف الطريق"، فكأنه يسير على رأسه، يركب رأسه في الأمور، مؤمن بعقله وقوته، يعني كأنه لا يركب الدابة، بل يركب عقله، وما عنده دليل، ولا هادٍ يهديه، ولا يعرف العلامات، فهذا من المؤكد أنه ضائع.

أريد بهذه المناقشة أن نصل إلى نتيجة مهمة: أن عقلك يتكوّن من شعورك، واللُّغة تكوّن هذا الشعور. ففي الأصل: كيف يتكلم الناس اللغة؟ يشعر بمشاعر

ويعبر عنها بكلمات، وتتطور هذه الكلمات مع الاشتراك الشعوري، فتستخدم هنا وتستخدم هناك؛ ولذلك فالشاعر يشعر بالأشياء الخفية؛ لأنَّ شَعْر الإنسان في بدنه من أدقِّ الأشياء، ويشعر بالطف الأشياء. فعندما يأتي الإنسان ويسمّي الأشياء باسمها ويعبر عنها بكلمات تصف حقائقها، فإنه يربط نفسه ويحجرها عن الخطأ؛ لأنَّ العقل -كما مر معنا- مأخوذ من **العقال**، وهو الحبس والمنع والربط، فكيف أربط نفسي وأمنعها؟ عندي شعور بالنفور من التُّرَّهات مثلاً، وعندما يكون عندي شعور بالنفور من القاذورات، فالكلمات وراءها مشاعر محبوسة، معاني مفهومة ومشاعر محبوسة. فهذه المعاني المفهومة والمشاعر المحبوسة هي التي تُكوّن عقل الإنسان، فبمجرد أن نسمع هذه الكلمة أو تلك، تسبب انطباعاً في داخل الإنسان، وتُحدث فيه أثراً.

لا يزال الموضوع ذا شجون، ونسأل الله أن نكون قد وُفِّقنا في هذه المناقشة؛ لأنَّ أكثر ما يشغلنا هو اغتنام مشاعرنا في تكوين عقل الرُّشد، بحيث تكون انفعالاتنا راشدة.

وبإذن الله نلتقي الأسبوع القادم في الموعد نفسه، وقد
استفدنا في هذا اللقاء من كتاب (حيارى الطريق)
للدكتور عامر بن عمر السواح، جزاه الله خيرًا.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.